رسائل حاج

# من ربوع الغـــرب
## إلى بلاد العرب

للمستشرق المجرى
الدكتور عبد الكريم جرمانوس
أستاذ التاريخ بجامعة بودابست

الدكتور جرمانوس فى لباس عربى

لثلاثين عاماً خلت وأمنيتي الوحيدة الاشتراك في موكب الحجيج والذهاب إلى مكة ، حيث بزغ فجر الاسلام ، وانتشرت دعوة النبي الكريم وتعاليمه المقدسة . وقد انبثق في نفسي هذا الشعور إثر مشاهدتي رسوماً فوتوغرافية نشرت في إحدى الصحف الأوربية الكبرى عن سياحة قام بها أحد الرحالين وتحدث فيها عن عجائب الشرق حيث تسطع الشمس طول النهار ، ويريق القمر أشعته الفضية فوق رمال الصحراء في الليل

وكان الأثر الذي تركته هذه الرسوم والمناظر الفتانة عميقاً في نفسي ، وباعثاً لاقبالي على تعلم اللغة التركية ، وعلى زيارة الشرق مهد الديانات الحديثة ومهبط الوحي المقدس

ولكن الأمور جرت في شيء من البطء ، أي أكثر مما تخيلته في البدء ، فمشاغل الحياة والواجبات اليومية الملقاة على عاتقي وقفت عقبة في سبيل تحقيق تلك الأحلام الذهبية التي تطوف بذهني وتجذبني نحو الاسلام . . . وأخيراً دعيت إلى زيارة الهند حيث قضيت بين ربوعها سنوات ثلاثاً لالقاء محاضرات عن التاريخ في جامعاتها ، وهناك اعتنقت الدين الاسلامي في مسجد دلهي العظيم ، ومن تلك الساعة أحسست من أعماق روحي بأنني أقترب من الغاية التي أرنو اليها بحيث يصبح في مكنتي الطواف بالبقاع الاسلامية المقدسة في مكة ، والتعريج على المدينة مقر القبر النبوي الطاهر ومثوى سيد الخلق . . . .

ولكن كيف أذهب إلى الحج وأنا لا أعرف من العربية حرفاً واحداً ؟ .... كيف أدرس « أم اللغات » وأنا في أوربا وبالأخص في بلاد نائية كالمجر لا يوجد بها من يتكلم بهذه اللغة التي هي في نظري أصعب من تعلم أربع لغات أوربية معاً ! ! ؟ وتلك لعمري كانت من أقوى العقبات التي وقفت حائلا بيني وبين تنفيذ رغبتي أو تحقيق أمنيتي في حينها

على أنه كان لي من قوة الايمان وثبات اليقين ما دفعني إلى الاقبال على تعلم هذه اللغة مهما بلغت العقبات وقامت الصعاب ، فبدأت أولا أدرس العربية بدون معلم وبواسطة كتب حصلت عليها من المكتبات الأوربية ، ثم عكفت على قراءة القرآن الشريف بمساعدة المعاجم اللغوية ، وحفظت عن ظهر قلب معاني الكلمات المبهمة والألفاظ المعقدة ، وتابعت السير على هذه الخطة عدة شهور إلى أن أصبحت بفضل الله ورعايته ملماً بأصولها . وفي خلال شهور الصيف أخذت أطالع قصص « ألف ليلة وليلة » والمعجم إلى جانبي ، وكثيراً ما لاقيت صعابا كادت تفت في عضدي وتوهن من قواي ، كالشعر الجاهلي الذي كان يبدو على الرغم من جماله وموسيقاه مبهما معقدا ، فكنت من حين لآخر أقذف بالكتاب جانبا وقد قر في عزمي ألا أعود اليه مرة أخرى ليأسي من التقدم

وبمرور الزمان انتصرت على جميع الصعاب ، ورحت أتفهم العربية في شيء من السهولة واليسر ، مع أنني لم أسمع في حياتي صوت متكلم بها ؛ ولما أيقنت مقدار ما تبطنه الظروف وأن هناك بعض النقص في إلمامي بالأدب العربي والشريعة السمحاء صممت قبل الشروع في زيارة البقاع الاسلامية المقدسة على أن أقيم فترة طويلة من الزمن في مصر حيث الأزهر الشريف مركز الثقافة الاسلامية ومحط العلماء

وفي الواقع كنت أسعد مخلوق في العالم عند ما ألفيت نفسي أدخر مبلغا من المال يساعدني على أن أطيل إقامتي على ضفاف النيل السعيد مهد المدنية والسلام

وعندما وطئت قدماي أرض القاهرة قوبلت بحفاوة عظيمة

من جانب أدباء مصر وصحفيها وغيرهم ممن مهدوا السبيل أمامي لاستكمال نواحي دراستي في الأدب العربي ، والتعمق في شعاب الدين الحنيف ، بحيث أصبح قادراً على صد هجمات كل من تسول له نفسه الافتراء أو التشويه من عظمة الاسلام في أوربا

وكانت فكرتي مقترنة دائماً بأن أدرس العربية دراسة جامعية لا دراسة هواية ، شأن كثير من المترفين ممن يكفون على تعلم اللغات لغرض السياحة أو بقصد القراءة الخفيفة المسلية ؛ وكنت أرى من وراء دراستي الى القيام بخدمة الاسلام والمسلمين الذين وقعوا تحت نير الاستعمار الأوربي منذ قرون ؛ وقد كانت هذه الغاية من أقوى العوامل التي دفعتني للتقرب من المسلمين في الهند وتركيا ومصر . وإن أنس لا أنس الظروف التي لاقيت فيها كثيراً من فقراء المسلمين الهنود ، وهم يعيشون في بطون أكواخهم المشيدة من القش ، ويستضيئون بأنوار الاسلام فتتحول تلك الأكواخ في أنظارهم إلى قصور وجنات بحيث يحتقرون مظاهر الجاه والثروة ويطأونها تحت أقدامهم

فالقرآن هو المثل الأعلى لتوجيه الانسان إلى الطريق السوي الذي يحتم على كل مسلم غيور ألا يحيد عنه قيد شعرة ؛ والمسلم الذي لم تعم بصيرته عن تلك الحقائق ويفقه تعاليم دينه فقهاً صحيحاً يرى أن القبس الروحي يتأجج في قلوب المسلمين جميعاً ممن لا ينكصون عن التضحية وبذل الواجب ، والذين يفنون ذواتهم في ذات الغرض الاسمى ، ويأخذون على عواتقهم التغلب على كل أمر والتجول في أنحاء العالم لنشر الدعوة وإظهار فضائل دينهم ومحاسنه

والواقع أننا قد نجد بعض مظاهر هذه القوة في الايمان عند بعض الأمم الأجنبية الأخرى ، لكنني ألفيت في قلوب إخواني المسلمين كنوزا تفوق في قيمتها الذهب والأحجار الكريمة ؛ ولقد عاشرت مسلمين فقراء كانوا لا يحجمون عن أن يقاسموا رفاقهم آخر كسرة يملكونها من الخبز . . . كم استضافوني في بيوتهم التواضعة وأعطوني أعظم شيء في الوجود ! . . إنهم منحوني إحساس الحب والتآخي ، ولقنوني عمل الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعند ما أطلقوني من ضيافتهم فاهوا بحكمة نبيهم الكريم : « اطلبوا العلم ولو في الصين »

* * *

وعقب وصولي القاهرة قصدت فوراً للأقامة في الحي الوء المعروف « بسيدنا الحسين » ، لكني لم أوفق للحصول على ـ ملائم

لقد كنت في خلال إقامتي الطويلة بتركيا أقطن في غر رحبة مؤثثة بالطنافس الوثيرة والرياش الفخم ، وكنت أتنا أفخر الآكل الشرقية وأشهاها ؛ فمن مظاهر الحياة الاسلا في الطعم ، إذ يؤثر عن النبي الكريم أنه كان يحث الناس ع العناية بمسائل الطعام وبالذبيح المحلل ، ولا تخفى الفائدة من ور ذلك ، فاتباع الطرق الصحية ووسائل النظافة والعناية بالله مما يزيد في صحة الأجسام ومناعتها

كانت آمالي إذن قبل القدوم الى القاهرة أن أقيم في بيـ من تلك البيوت العربية الطراز ، وبين قوم يرتدون اللبا الشرقي الفضفاض ويتناولون الطعام بأيديهم ، ولكن ليس ك ما يتمنى المرء يدركه ، فانني لم أوفق في الحصول على سك ملائم ، فاضطررت الى الاقامة في نُزل أوربي

ولكم تألمت إذ ألفيت أهل القاهرة لا يلبسون الثياب الشرقية المزركشة ، ويستبدلون بالقفطان والعمامة شعار الاسلا — الأزياء الأوربية ، كما راعني في البيوت المصرية التي زرتـ خلوها من الأثاث الشرقي ، وأن أجد الشباب المصري يوج عناية خاصة للالمام بأنواع الثقافات الأوربية المتعددة ، ويفرطو في جانب لغتهم وقوميتهم ودينهم ! !

ولقد قال أحد أصدقائي المصريين في معرض حديث ل معي : « يستحيل علينا أن نعود الى تلك الأثواب الطويلة المهلهل عند ما نبغي الصعود الى المركبات أو عربات الترام »

ولكني رأيت كثيراً من الناس يرتدون تلك الأثواب وما كان أجملهم في نظري وهم يتسلقون الترام أو السيارة بكل خفة ورشاقة

والواقع أن تلك الملابس أفضل بكثير من الأثواب الأوربية الضيقة ، ولاسيما القبعات التي نضطر إلى أن نحملها بين أيدينا عند ما نجلس أو نزور أو نحيي أحداً

ومن رأيي أن الحصول على الأثاث الشرقي واللباس العربي والتطبع بالعادات الشرقية أمور يسهل اتباعها في القرن العشرين من غير أن يفقد المصريون خصائصهم ومميزاتهم ، أضف إلى ذلك أن إحياء الصناعات القومية وإنعاش حال الأسواق الشرقية